الضمير العائد، رؤية في المرجعية المعرفية

مقال منشور بمجلة مقاربات، العدد7،م2011،4- جامعة فاس- المملكة المغربية.

مقدمة:

إن تكوين اللغة هو إنشاء لكثير من المرجعيات المعرفية واستحضار لها، فالإنسان يملك هذه اللغة وهي أداة في يده يوجهها كيفما شاء، تعينه في ذلك كثير من الإشارات النحوية التي تجمع في بنائها بين الاختزال والاتساع، وتحمل سمات دلالية كثيرة نحو النوع، والعدد، والجهة، والحضور والغياب، والإحالة، ...، إنه الضمير، تلك الوحدة اللغوية التي تطرح عدة إشكالات في سائر الأضرب الكلامية؛ إذ لا يخلو منه موقف تواصلي مما يجعله منسابا داخل النظام التركيبي والدلالي، فيبدو متعدد الصور والتراكيب. وحتى نتبيّن ماهية الضمير وخصائصه وأدواره في التركيب، يجب البحث في تلابيب النظرية النحوية العربية والوقوف على حيثياتها، ثم اعتماد فرضيات كانت منطلق تصورنا المفهومي لفكرة الضمير وعمله.

1- الضمير فرع من فروع الاسم:

الضمير صنف من أصناف الأسماء، ولكن لا يقوم بمفرده، إذ لابد من تعلقه، وهو أيضا نائب الاسم الظاهر وخلف له، يقول ابن جني "والأسماء المضمرة ثوانٍ لها، وأخلاف منها ومعوضة عنها، فلم تقو قوّة ما هي تابعة له ومعتاضة منه"[1].

وهي مرحلة من مراحل الإضمار والإظهار في الأسماء، ودرجة من درجاته؛ إذ يكون الاسم مخفيا ثم تظهر ملامحه في ضمير متصل أو منفصل ثم يتجلى اسما ظاهرا في كثير من التراكيب، غير أن الاسم الظاهر يلتزم موضعا يختلف عن مواضع الضمير وأبرزه التعلق وهو "من قبيل العلاقات التي لا تقوم في الكلام بنفسها، بل هي تحتاج إلى التعلق بما تعوضه وتكرره في صورة مختزلة"[2].

فالاختصار والترتيب خصائص تركيبية (شكلية) للضمير، أما الخصائص الدلالية فهي حمله للدلالة نفسها التي يؤديها الاسم، يقول المبرد: "واعلم أنّ الدليل على ما ذكرنا (المبهمات) أسماء وقوعها في مواضع الأسماء وتأديتها ما تؤديه الأسماء"[3].

فالأسماء حمالة لأوجه وظيفية، فهي المرفوعة والمنصوبة والمجرورة، وفي الرفع تكون فاعلا أو مبتدأ، وفي النصب تكون مفعولا به أو غيره وفي الجر مضافا أو نعتا، أو غيره.

فالاسم له بنيات شكلية مختلفة تراوحت بين الإضمار والإظهار وفي ذلك قصد ونية.

2- الخصائص الصرفية والدلالية للضمير:

تمثل الضمائر تلك الوحدات اللغوية التي تجمع بين اختزال البنية الصرفية واتساع المعنى وتوزعه على كل التركيب[4]. وهي على

---

(1) الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، 1999، ج2. ص 194.

(2) المنصف عاشور، ظاهرة الاسم في التفكير النحوي، منشورات كلية الآداب منوبة، تونس،ط2، 2004. ص 660.

(3) المبرد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، 1963، ج3، ص 172.

(4) المعنى في الضمير يتشكل في بداية التركيب ويَعْبُرُ الوحدات مقويا ربطها ببعضها بعض، ليستقر بشكل آخر في آخر وحدة في التركيب ثم يبعث بإشاراته المعنوية، يوحي للمتلقي بأنه على صلة بما سبق.

نوعين ضمائر منفصلة وضمائر متصلة، فالانفصال والاتصال يحددان بدقة شكل الضمير ووضعيته في البنية التركيبية، إنها بنية مستقلة حرة وأخرى متصلة تابعة.

والواضح أن هناك تقابلا بين النوعين من حيث حركات البناء، ففي الجملة "أنت تقوم بفعل الخير" يكون الضمير المنفصل في (أنْت) مبنيا على الفتح، وتبقى هذه الحركة حتى مع الضمير المتصل في (قمت) بفعل الخير، وهذا يعكس ثبوت بنية الضمير من جهة البناء، وتغيره من جهة المحل والتعلق، ولعلنا ندرك علاقة أخرى يمكن وصفها بالتداخل بين الضميرين المنفصلين الدالين على المتكلم والمخاطب، "أنا" و"أنت"، فالفرضية التي نتبناها هنا هي أن: كلا الضميرين يشتركان في الألف والنون وهما أصل واحد، إذ أن ضمير المخاطب استمرار لضمير المتكلم حيث نلمس حضور المتكلم في كل بنيات الضمير؛ فأما حضوره في ضمير المخاطب، فهو على وجهين هما: البنية الشكلية والبنية الدلالية، وأما حضوره في ضمير الغيبة فهو حضور دلالي، على أساس أنه هو الباعث الأصلي وموجه الخطاب.

ويرجح برجستراسر أن تكون أنت وفروعها "مركبات من شيئين: التاء التي تتصل بالفعل الماضي من نحو: ذهبت، وقعدت ومن مقطع (أن) الذي يحتمل أن يكون من أدوات الإشارة"[1].

وقد سبقه إلى هذا الرأي بعض النحاة مما ذكره الرضي يقول فيه: "إن الضمير المرفوع هو التاء المتصرفة، فكانت مرفوعة متصلة، فلما أرادوا انفصالها دعموها بأن تستقل لفظا"[2]. وهذان الرأيان لا يبتعدان عما ذهبت إليه من وجود علاقة بين أنا (ضمير المتكلم) وأنت (ضمير المخاطب) فـ"البصريون كانوا يرون أنها كلمة ثنائية مؤلفة من أصلين هما: الهمزة والنون، والألف امتداد لفتح النون، وإنما فتحوها لئلا تشبه الأدوات"[3].

فكان الفتح في النون مع ضمير (أنا) وفي التاء مع ضمير (أنت) إشارة إلى العلاقة بين الضميرين وتواليهما. "فالفتحة هي الألف

---

(1) برجستراسر، التطور النحوي للغة العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ودار الرفاعي بالرياض، ص 48 .

(2) والذي ذهب هذا المذهب هو ابن كيسان الذي خالط المذهبين، ينظر الرضي الاسترابادي، شرح الكافية، ج2، ص 10.

(3) شرح المفصل، ج2، ص 317.

الصغيرة"[1] مثلما يقول ابن جني، ولعلنا نسوق مثل هذا الدليل لنتبين العلاقة القائمة بين ضمير المتكلم وضمير المخاطب، إذ هي علاقة حضورية تلازمية يفرضها الخطاب التواصلي.

3- علامات البناء في الضمير ودلالته على النوع والعدد:

الظاهر أن اللغات الطبيعة ولاسيما العربية ذات دلالات كثيرة تحملها البنيات الصغرى والكبرى، فبنية الضمير الأحادية، أو الثنائية، أو الثلاثية في الضمائر المتصلة ذات دلالات خفية يمكن استقراؤها على النحو الآتي:

أ. البنية الأحادية (الضمير المتصل):

النون والتاء، والكاف والهاء، ضمائر متصلة تتصل بالأفعال أو الأسماء، إذ تحمل التاء: حركتي الفتح والضم على النحو الآتي، قمـ(تَ)، أو قمـ(تُ). فصيغتها المقيدة ترتبط بالفعل وتتصدر التركيب، أما الكاف والهاء، فيشكلان ضميرين عائدين يرتبطان بعنصر اسمي: نحو: قرأتَ كتابـ(كَ)، أو قرأ كتابـ(ـهُ).

فالفتح في الكاف يقابل الفتح في التاء في الفعل قمـ(تَ) (أنتَ) والضم في الهاء في نحو: كتابهُ يقابل الضم في التاء في الفعل قمـ(تُ) (أنا).

وهذا التقابل يدل على علاقة الأسماء في صيغتها الصغرى بالأفعال واتصالها على سبيل التعلق والإسناد، والارتباط واضح بين التركيبين الاسمي والفعلي وتساوي الضمائر فيهما بادٍ، يقول ابن يعيش: "حتى إنهم جعلوا بعض المتصلة في النية كالضمير في "أفعل" و"يفعل" و"تفعل" في "زيد قام"[2].

والاتصال والاستتار واحد، إذ عده النحاة ذا وظيفة مشتركة ومبلغ الإفادة هنا هي الإيجاز، فالضمير المتصل يتكون من حرف واحد وهو في ذلك كالضمير المستتر الذي لا يظهر في البنية السطحية، فقد تساوى عندهم الإيجاز والتقدير. وفي هذا الارتباط يكون الضمير أكثر حرية من الاسم، إذ يتميز ببعض الصفات الصرفية من

---

(1) ابن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق: أحمد فريد أحمد، المكتبة التوفيقية، مصر، ج1، ص 28.

(2) ابن يعيش، شرح المفصل، ج2، ص 317.

ذلك انقسامه إلى ضمير رفع وضمير نصب، وهذا معدوم في الأسماء[1].

ويبلغ الارتباط مداه، إذ يظهر في التوافق التام بين نوعي الضمير (المتصل والمنفصل) في حركتي البناء (الفتحة - والكسرة).

ثم إن خاصية التقابل التي تتحقق في ضمير (أنت) والكاف في (كتابك) تدل على أن الضمير المسيطر على الجملة هو المتكلم. والمخاطب الذي يحقق الحدث ويمثله "إذ تشير (ك) إلى شخص مخاطب في موقع مضاف إليه في المعنى، تترجم ذلك إلى مسافة ذهنية فاصلة بين موقع المتكلم وموقع السامع في الفضاء الذهني"[2].

فالنقطة المركزية هنا هي الفعل (تقرأ) الذي يربط بين نقطة الانطلاق (أنت) ونقطة الوصول (كتابَكَ) فالربط قوي ومتعدد الأوجه، فهو يتمثل في تاءين؛ تاء الضمير، وتاء الفعل، وكلمة (كتابك) تجمع بينهما.

وإليك رسم توضيحي يبين الارتباط الحاصل بين الضمائر وعناصر التركيب الأخرى

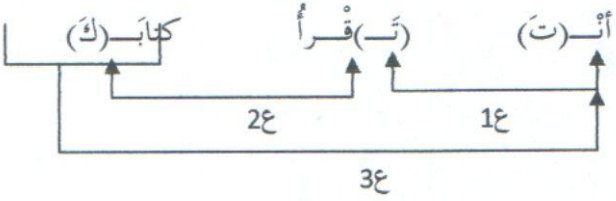

العلامة الأولى: أنشئت بين التاءين، تاء الاسم وتاء الفعل(تقرأ).

العلامة الثانية: حركة البناء التي نلاحظها على ثلاثة محاور:

1- محور الاسم / الضمير: أنت.
2- محور الفعل، تقـرأ.
3- محور الاسم، كتابـكَ.

---

(1) ينظر: الأزهر الزناد، نسيج النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص 117.

(2) الأزهر الزناد، الإشارات النحوية، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، 2005، ص 462.

فالفتحة حركة لازمت التاء والكاف، وربطت فعل القراءة بالذات المقارنة، وأبانت محور القراءة وهو الكتاب، وكل ذلك في دلالة مفتوحة ظاهرة (حسية) غير مجردة.

وتنفتح البنية في المثال (2): أنتِ تقرئين كتابكِ على مستوى تجريدي آخر وهو أن الضمير عنصر مسيطر ومفسر؟ إذ عملت حركة الكسرة في ضمير (أنت) على توجيه بنية الفعل نحو الياء، وتلتها حركة الضمير (ك) الذي ورد مكسورا أيضا إشارة إلى نوع المخاطب وارتباطه بالفعل (تقرئين) والاسم (كتابك) وتفسيرهما على أن حدث القراءة قامت به المخاطبة المؤنثة (أنْتِ)، وأن الكتاب ملك لها.

إنه إعلان عن نظام صرفي منسجم ومتناسق، يعكس خصائص الضمير حسب المستويات اللغوية "ففي المستوى الصرفي (الاشتقاق التصريفي) تتألف بنية الضمير من صوائم يتحقق بها الجذر وصرافم تيسر تصريف الضمير حسب مقولات الخطاب (حضور/غياب) والجنس والعدد والإعراب، وفي المستوى الإعرابي التركيبي تتحدد نسبة الضمير بعلاقته بالعامل النحوي من ناحية وبعلاقته بالمفسر من ناحية أخرى، أما في المستوى الدلالي فإن بنية الضمير تتشكل من معانيه المقولية الصرفية ومعانيه الوظيفية ومعانيه المعجمية الحاصلة من علاقته بالمفسر"[1].

ب. البنية الثنائية (الضمير المنفصل)

تتميز الضمائر المنفصلة بأنها أكثر حرية من المتصلة، إذ أنها تتصدر الجملة وتسيطر عليها وتوجهها، وهي دالة على النوع والعدد والحضور والغياب والجهة. فضمير المخاطب (أنتَ) متصل بضمير المتكلم (أنا) في الوجود المجرد وهما دالان على إشارتين: إحداهما تصورية والأخرى حسية؛ وتثبتان عنصري الخطاب، فالمتكلم هو المسيطر على عملية الخطاب وهو بدوره يحدد نوع المخاطب وعدده وحضوره وغيابه (أنتَ/ م. مذكر)، (أنتِ/م. مؤنث)، (أنتم/جمع مذكر)، (أنتن/ جمع مؤنث) فهؤلاء جميعا يُسيّرون عملية التواصل فقد يشكلون متلقين أو مساهمين في الخطاب.

---

(1) الشاذلي الهيشري، الضمير بنيته ودوره في الجملة، ص 20-21.

أما ضمير الغيبية (هـو) ... فغيابه حسي (غير موجود) وأما الغياب في التصور الذهني فيدل على المسافة المكانية بينه وبين المتكلم وكأننا قلنا: ذلك هناك ...

ويذكرني هذا السياق بغياب الفاعل في المبني للمجهول؛ فالغياب هنا أو هناك واحد تشير إليه أدوات تعيينية نحو: هو، هي، هما، هم، هن بمقابل هناك، والهاء المضمومة واحدة في الصيغتين، وهي دالة على الضمة في صيغة البناء المجهول ودالة على الغيبة والرجوع في الضمير، فالضمير (هو) ... وصيغة المبني للمجهول بنيتان مجهولتان لدى السامع والمتكلم[1]. إنهما تتركان أثرا انفعاليا لدى المتكلم. وتتلاقى الإشارتان أيضا لتدعم ذلك الانتفاء من الحضور والإيغال في المجهول الغائب غير المحدد، إذ لا يملك ملامحه الدقيقة.

وللضمير المنفصل صور أخر تحمل دلالات توسع الجملة الاسمية، فهو يرد مبتدأ وخبرا، فأما المبتدأ نحـو: أنتَ مسلـم.

هـو اللهُ.

وأما وروده خبرا نحو: حاضرٌ أنتَ

شجاع هـوَ.

والمبتدأ في العربية يمكن تعويضه بالضمير، وقد لاحظ الرضي كثرة ورود المبتدأ ضميرا يقول: "... وكون الضمير خبرا لمبتدأ أقل قليل .. المحذوف هو المبتدأ لكثرة وقوعه ضميرًا" [2].

فالضمير (المبتدأ) قد اختص بالخبر وتعلق بمضمونه وصار جزءا منه دالا عليه موضحا إياه، فالضمائر أقوى المعارف فهي تشير إلى الشخص بعينه وتحدد حضوره أو غيابه في عملية التواصل.

الضمير المتصل والمنفصل هل هما واحد؟

لا شك أن البنيات الصرفية وتعددها في الضمير توحي أن الضمائر بأنواعها (متصل/منفصل) ليست واحدة في تموقعها أو عدد

---

(1) هذا افتراض توصلت إليه من خلال ملاحظتي للعلاقة القائمة بين دلالة الغياب في الضمير ودلالة الغياب في الفاعل (المبني للمجهول)، وأقصد به الغياب الضمني (المجرد) الذي يحدث في الذهن؛ فهما صيغتان مختلفتان لشيء واحد محذوف وهو الاسم. يقول المنصف عاشور: "يعتبر ضمير الغائب من أقوى طرق تكرار الأسماء وتفسيرها وتوضيحها، وقبله لا وجود إلا للإبهام الشديد". ظاهرة الاسم في التفكير النحوي، ص 662.

(2) الرضي الاسترابادي، شرح الكافية، ج2، ص 43.

فونيماتها، غير أن هناك تداخلا بينها من حيث البنية الاشتقاقية، يقول خالد الأزهري "ذهب بعضهم إلى أن المتصل أصل للمنفصل محتجا بأن مبنى الضمائر على الاختصار، والمتصل أخصر من المنفصل"[1].

وبيدو أن النحاة لهم تصور واضح قائم على أساس غياب البنية أو وجودها، (بنية صفرية) أو بنية أحادية أو ثنائية، فالمورفيم الصفري موغل في التجريد يمكن تقديره وإحضاره إلى البنية السطحية عن طريق عدة قرائن منها: صيغة الأفعال وارتباطها بالأسماء، أما البنية الأحادية و(التاء) أو (الكاف) و(الهاء) فهي ذات أصل مختصر وهي الأكثر دلالة على نوع المتكلم والمخاطب والغائب. فالتاء مثلا تلزم حركة واحدة وهي الضم، ويتم التمييز بينها بحرف الميم للجمع المذكر والنون للجمع المؤنث، وتلحق الألف الدالة على التثنية الميم في (أنتما).

"إن المقابلة تظل قائمة باستغلال الإمكانيات التي توفرها الحركات من حيث غيابها وحضورها، ومن حيث نوعها ومدها"[2].

الضمير واسم الإشارة تعيين للذات والمكان:

هناك إشارات صرفية تتحقق في البنيتين (الضمير واسم الإشارة) فالـ(ك) والـ(ها/ـهُ) والـ(ت) كلها تدل على الأشخاص في الضمائر سواء حاضرة أو غائبة، وتبعث هذه الإشارات بدلالات الوجود في الفضاء المكاني: هنا، وهناك، وتلك، ... يقول كاسيرر "إن جميع اللغات تتفق في اتخاذ ضمائر الشخص من الأدوات التي تستعمل للإشارة إلى الأشياء في الفضاء أو المواقع فيه"[3]. فما بين الضمائر وأسماء الإشارة تناوب (في التموضع) في الفضاء المكاني العيني، فأنت موجود هنا وموجود هناك، وهو موجود بعيدا عن الأعين، أما (أنا) فهو: هنا. لا يبتعد عن هذا المركز.

---

(1) خالد الأزهري، شرح التصريح على التوضيح، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1954، ج1، ص 98.

(2) الأزهر الزناد، الإشارات النحوية، ص 317.

(3) Cassirer, E, 1972, La philosophie des formes symbolique:1, le language (trad, de l'allemand parole Hansen pove et jean lacoste, 1972, Paris, Minuit,169.

نقلا عن: الأزهر الزنـاد، الإشارات النحوية، 461.

فالإنسان يتلاشى في الزمان والمكان، وهما محددان لا يظهر إلا بهما، إنهما موغلان في التجريد ويدل عليهما الوجود الشخصي لـ أنا وأنتَ وأنتِ، وهو، وهي ...

درجات الضمير:

يتنوع الضمير في إضماره وإظهاره، ويرد على درجات متفاوتة في الاتجاه نحو الإضمار والاستتار من جهة والإظهار والبروز من جهة أخرى، وقد أكد النحاة على هذه الظاهرة وكانت مؤسسة على قصد من مستعملي الخطاب، يقول ابن يعيش: "...جُعل بعض المضمرات مستترا في الفعل منويا فيه، غلوًا في الإيجاز، وذلك عند ظهور المعنى، وأمن اللبس"[1].

فكان ظهور المعنى ووضوحه قرينة قوية للجوء إلى إخفاء الضمير وحذفه من البنية السطحية. فأما الضمير المتصل فحضوره في البنية السطحية لاتصاله بالأفعال أو الأسماء، وهذه الوحدات اللغوية كافية لإظهار المعنى الذي يحمله الحرف الواحد في الضمائر المتصلة بها، ولذا تم اختصارها، وأما المنفصل فدلت بنيته على تحمل المعنى بمفردها وكافية لأن تستقل "وهو جار مجرى الظاهر"[2]. وتوصف الضمائر عند النحاة "بالوحدات الدالة على الشخص وهو يتعلق بمفهوم الخفاء والدقة والباطن"[3]. وتقاس قوة الضمير بقوة حضوره في البنية وقوة دلالته، فأما قوة البنية فتتحقق في الذهن، وأما في الاستعمال فإن أيسره وأقواه المتصل، يقول ابن جني: "إن المضمر المتصل وإن كان أضعف من الضمير المتصل، فإنه أكثر وأيسر في الاستعمال منه ألا تراك تقول: "إذا قدرت على المتصل لم تأت بالمنفصل"[4].

فالتركيب في النظرية النحوية يميل إلى الحذف والاختصار، مع ترك علامات تشير إلى المحذوف ومن أبرزها علامات المضمر، ومن الضمائر ما تكون له علامة ومنها ما لا تكون له علامة إنما هو موجود في البنية، وقد خص سيبويه الإضمار في البنية للأسماء "لأن

---

(1) ابن يعيش، شرح المفصل، ج2، ص 326.
(2) شرح المفصل، ج2، ص327.
(3) الأزهر الزناد، نسيج النص، ص 117.
(4) الخصائص، ج2، ص 194، وينظر: ابن يعيش، شرح المفصل، ج2، ص 315.

الفعل يضمر وتقع فيه علامة الإضمار، والاسم لا تقع فيه علامة الإضمار"[1].

وقد بدا واضحا أن هناك فروقا بين ضمائر الأفعال وضمائر الأسماء "وهو مظهر من مظاهر تجلي الفرق دون أن يكون الفرق عينه"[2]، وقد سماه المتأخرون من النحاة الضمير المنوي[3].

علاقة الضمير بمفسره:

فيم تكمن علاقة الضمير بمفسره؟ هل هي علاقة أم نظام من العلاقات يقوم على توجيهه الضمير العائد؟

تقوم الجملة في تكوينها ومقصدها على خصائص غاية في الأهمية منها التركيبية والدلالية، وكلاهما متداخلان. فالتركيب يوضح الدلالة ويحملها، والدلالة تقوى بقوة العلاقات التي تنشئها الوحدات اللغوية داخل التركيب، منها الضمير العائد الذي يحمل في نظري – مرجعية معرفية كلية، وهذه المرجعية تتمثل في الإشارة إلى ما تحمله كل العناصر السابقة له، وكأنها متوازية في قوة ما تحمله من معنى الضمير، فإذا قلنا: قرأتْ الفتاة كتابها. (فالهاء) في كتابها لاحقة تصريفية صغرى دلت على كل من الكتاب والفتاة وفعل القراءة، ثم إن ضمير الغيبة يحمل إشارة الغياب التي توافق زمن حدوث الفعل وهو الماضي؛ وقد تتوزع دلالة الغياب في جهتين هما: جهة الغياب في الماضي، أو جهة الغياب في المستقبل. نحو: ستقرأ الفتاة كتابها. ويبقى تحديد جهة الأفعال في الزمن مرهونا بصيغة الفعل؛ فإذا كان ماضيا توجه الحدث كله بما فيه الغياب نحو الماضي، أما إذا كانت الصيغة دالة على المستقبل (قريب/بعيد) فإن الإيغال يكون في المستقبل.

تحمل البنيات السابقة إحالة داخلية وأخرى خارجية، فأما الإحالة الداخلية فهو ضمير الغيبة (مفردة مؤنثة غائبة) تمثلها (ها) وأما الإحالة الخارجية فهو المتكلم الذي يحمل البنية الخطابية ويتحدث

---

(1) سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1988، ج2، ص 54.

(2) محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية تأسيس نحو النص، جامعة منوبة، المؤسسة العربية للتوزيع تونس، ط1، 2001، ج2، ص 1101.

(3) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ج2، ص 885.

عنها. فلو عدنا إلى التركيب السابق ذكره: قرأتْ الفتاة كتابها فإننا سنحدد المفسر والعائد؛ فالفتاة هي المفسر والمراقب اللغوي للضمير، ويكون الضمير تابعا للمفسر فارضا قيودا صرفية عليه وهي الجنس والعدد.

فقد اعتبر بعض اللسانيين الغربيين أن الضمير الغائب معينا من درجة ثانية "فلا يعين إلا ما يستطيع مفسره تعيينه فهو شكل ناقص، خصائصه محدودة تنحصر في الدلالة على جنس الاسم الذي يفسره عدده، كما أنه غير قادر على أن يمكّن من مبدأ جديد إحالي"[1].

إن اعتبار ضمير الغيبة قاصرٌ عن تحديد الإحالة أمر يخالف الطرح الذي قدمناه وذهب إليه النحاة، إذ عد سيبويه أن الضمائر تتميز بخصائص إحالية قوية يقول:"لو قلت ما زيد منطلقا زيد لم يكن حد الكلام، وكان ههنا ضعيفا ولم يكن كقولك: ما زيد منطلقا هو، لأنك قد استغنيت عن إظهاره وإنما ينبغي لك أن تضمر" [2].

وأما الرضي الاسترابادي فإنه أقر بدور المفسر والضمير في الإحالات الداخلية والخارجية، يقول: "... سياق الكلام المستلزم للمفسر استلزاما قريبا... أو بعيدا كقوله تعالى: **ژگگگڑ** [3] إذ العشي يدل على توارى الشمس وكقوله تعالى: **ژٱپپپڑ** [4] إذ النزول في ليلة القدر التي هي في شهر رمضان دليل على أن المنزل هو القرآن وكذا قوله تعالى: **ژپپپپڑ** [5] فإن ذكر الدابة مع ذكر ظهرها دال على أن المراد ظهر الأرض"[6].

فالإحالات الخارجية الشمس، والقرآن، وظهر الأرض لم تذكر في النص وإنما دل عليها السياق بدلالة المفسر الذي يعمل على توجيه الإحالة مرة خارج النص ومرة أخرى داخله.

يقوم الضمير بدور رئيس في توضيح المعنى وتوجيه الوحدات اللغوية داخل التركيب، كما يعمل أيضا على بيان جهة المشار إليه

---

(1) كلاييار 1994، ص 47، نقلا عن نرجس باديس، علاقة الضمير بمفسره، بين التبعية في المنوال النحوي والتسلط في المنوال التداولي العرفاني مقال بحوليات الجامعة التونسية، العدد 48، سنة 2004، ص 171.

(2) سيبويه، الكتاب، ج1، ص 62.

(3) ص: 32.

(4) القدر: 1

(5) فاطر: 45

(6) شرح الكافية، ج2، ص05.

وبهذا يشكل عنصرا هاما ومميزا في عملية التواصل. إنه يتمثل عناصر إشارية كثير[1] لتعميق الفهم وإدراك المعنى الخفي.

ويعد الضمير بأنواعه وفروعه تشكيلا للمحسوس والمجرد، للوجود واللاوجود، للحضور والغيبة. هذه الثنائيات الكونية التي يقوم قانونها على التأثير واللاتأثير. وقد وأورد السكاكي تصنيفا للأدوار الخطابية التي يقوم بها كل من المتكلم والمخاطب والغائب بناء على هذا القانون؛ فالموجود عنده هو الذي يكون ضمن دائرة الخطاب، وعد المخاطب الذي يقصد بالخطاب غائبا، وقد تناقل التهانوي هذه الفكرة في قوله "غير المتكلم والمخاطب اصطلاحا، فإن الحاضر الذي لا يخاطب يكنىّ عنه بضمير الغائب"[2].

وفي هذا تمييز بين المخاطب المقصود بالخطاب، والمخاطب غير المقصود، ويكون كل من المتكلم والمخاطب خارجين عن نطاق الوحدات اللغوية فهما يندمجان ضمن السياق.

وصفوة القول الضمير صورة من صور الاختزال في البنيات الصرفية التي تسهم في توسيع المعنى وتشرك المتكلم والمخاطب في انجازه وفهمه. وتمر عملية الاختزال بمراحل يتشكل في كل مرحلة منها نوع من الضمير (المنفصل، والمتصل، والمستتر) ويعكس خصائص تركيبة ودلالية تتمثل في المطابقة، والربط، والارتباط، والإسناد، والإحالة، وغيرها يقوم بتفسيرها وتوجيهها، إنه عنصر مفسر ومسيطر.

---

(1) هذه الإشاريات هي: السياق، الإحالة، الأسماء، الأفعال، الغيبة، الحضور، ...

(2) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج2، ص884.